

على هامش رمته الى الحجاز

ليلة في مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرق بجامعة بودابست

تمة ما نشر في العدد الماضي

ولا بد أن هذا الأمر كان مقصوداً من الله جلّت قدرته وهي بعض صفاته العليا. فالعلماء الذين يتجردون من المادة ويصعدون بأفكارهم إلى أعلى عليين، والصوفيون الذين يحاولون التوحيد بين ذواتهم وذات الله وفنائهم فيها، والفلاسفة الذين أرسدوا أنفسهم في سبيل البحث عن الحق المطلق الذي لا يلبس وليس له زمان. ألم يكن هؤلاء جميعاً يحاولون الوصول من طرق مختلفة، إلى غرض واحد، هو الاشراف الباطني؟ تلك هي نعمة التجرد التي ترد الظلام كما يرد الشمس في الليل، وفي الوقت ذاته يعنى حامله إلا عن نفسه.

ولا يخفى أن النفس العريية نبتت في الصحراء القاحلة - أجل - لقد رأت ذلك النور المتألق في تلك الصحراء التي تحدها بحار من الرمال، ويعلوها أفق لا شائبة فيه حيث يستطيعون حتى في ضوء القمر أن يميزوا بين الظل والنور، بين الأسود والأبيض. ولكنهم قلباً يدركون شيئاً من أسباب هذا التطور، ولا يعرفون ما تخفيه لهم الأقدار في رحلاتهم البعيدة وهم يجتازون مفاوز الصحراء، إنهم يستخفون بمظاهر هذا العالم الفاني لأنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بحياة أطيب وأبقى من تلك التي يعيشونها الآن، وللدار الآخرة خير وأبقى.

لقد راعني جلال الحفلة، فرأيت الرجال يضطجعون على الأرائك المبعثرة في أركان الثوى يتمتعون بلذة التدخين في ظل المصاييح ذات الضوء الشاحب، وعلى الرغم من أن التدخين محرم في الأراضي السعودية فقد ألفت بعضهم بدخن

النارجيلة ويسبح مع دخانها في عالم الخيال. وقابلني رب الدار بكل بشاشة وترحاب وكذلك بقية الضيوف، وكان السرور يطفح من وجوههم والبشر يتالق على محياهم، وكانت أول تحية سمعتها من صاحبي قوله: — على الرحب والسعة، الله سبحانه وتعالى يوليكم برحمته ويمنحك بركته.

فأجبت: شكراً لك وللرفاق، وفي الحقيقة إني مستأنس لوجودي بينكم، فلا حرماً الله منكم.

ثم اتكأت على إحدى الأرائك ووضعت وسادة تحت ذراعي. وفي الحال أحضر صاحب الدار نارجيلة مزخرفة بالنقوش بيد أني اعتذرت عن التدخين لعدم تعودى عليه من قبل، واتى أخشى أن يصيبني دوار منه، مع اعتقادي بأن في تدخين النارجيلة لذة وتنشيطاً للقريحة، وهو مظهر من مظاهر العز الشرق البائد، حيث تظل رافعاً رأسك، محدقاً في غيرك وأنت تمسك بقبضة خرطوم النارجيلة.

في ذلك الثوى المثقل بدخان التبغ والذي كانت حرارته تكاد تصهر الوجه، رأيت لأول مرة منظر الجوارى وهن يدخلن علينا بأكواب الشاي المعطر، وكانت إحداهن المسماة فريدة، عذراء في ريعان الصبا، وهي من جنوب بلاد العرب، صبوحة الحيا، بسامة الثغر، رشيقة في حركاتها، تخطو كخطو الغزال الوحشي. وكانت تحلى جيدها ومعصمها ببعض الحللى، وترتدى من الملابس أغرها. وكانت عند ما تصل إلى موضع الضيف تحنى رأسها بابتسامة ثم تقدم إليه الشراب المثلج.

هذه الجارية كانت مملوكة لصاحب الدار الذي يسيطر عليها سيطرة تامة، فمن حقه مثلاً أن يبيعها أو يعتقها أو يهبها إلى غيره وعلى الرغم من أن الفتاة كانت تدرك ذلك قلباً كانت تأبه بهذه الأحوال الثقيلة، بل كانت تنتقل من مكان إلى مكان دون خوف أو وجل، كمصفور موضوع في قفص يحوى طيوراً جارحة. أما الرجال فانهم يتسامرون في خلواتهم بأحاديث الهوى والعشق ويلتمسون في ذلك عزاء وسلوى. لأن المرأة في كل البلاد العربية لا يمكنها أن تشارك في الحفلات والمجتمعات، بل انهن يكتفين بالنظر خلسة إلى الرجال أثناء سمرهم، وهن

لا يعلن شيئاً من مجريات الأمور الخارجية إلا ما يصل إلى سمعهم من الأحاديث التي تدور حول الموارد ولقد أفضى إلى أحد الضيوف المسمى الغرابي بحادث زواجه المرة الثانية وما لاقاه من زوجه الجديدة من عنق وقسوة عندما أراد التني بها . فالزواج في تلك الديار موكل إلى أهل الزوجة ، وعليهم أن ينتخبوا بأنفسهم الزوج الصالح لابنتهم ، أما القبائل البدوية التي ترابط خارج مكة فهم لا يتزوجون إلا من عشيرتهم . وذكر صاحب الغرابي ، أنه بعد إتمام مراسيم حفلة العرس ، تلك الحفلة التي يحتفل بها الرجال والنساء كل على حدته ، يدلف العريس إلى مخدعه حيث تكون العروس في انتظاره . ومن البديهي أن ذلك السيد الذي فرضه عليها ، لم يقع نظرها عليه قبل الساعة .

يدخل صاحبنا المخدع الذي يكون مضاء بمسرجة باهتة اللون ، وهناك يقع نظره على كومة منزوية في أحد الأركان وما تلك الكومة إلا عروسه ملفوفة بين الوسائد ، ومشدودة بالحبال . وتشعر بدخول عريسها فتخرج رأسها من بين تلك الوسائد - كما يخرج القنفذ رأسه - فيتقدم إليها بلطف محاولاً أن يصافحها ، ولكن عوضاً عن أن تمد يدها إليه ، فإنها تلمطه على خديه بكل قواها ، بحيث تبعده عنها . ثم يحاول أن يقترب منها للمرة الثانية فيكون نصيبه مثل ما أصابه في المرة الأولى وربما أحدثت في يده جروحاً من أظافرها الطويلة - أما هو فيجد نفسه غير قادر على معاملتها بالمثل ، وبفرض أنه حاول أن يضربها ، فإنها لا تحس بتأثير تلك الضربات التي لا تقع إلا على الوسائد . وفي هذه الحالة ليس من وسيلة أمامه سوى أن يشرع في تمزيق هذه الوسائد ، الواحدة بعد الأخرى . وهو في خلال هذه الفترة معرض لكل ضروب اللكم والعض والحرشة . ولا يكاد يفرغ من هذه العملية الشاقة حتى يضنيه الاجتهاد فتهدأ نائرة العروس وتبدأ تسلم نفسها إليه .

وضحكنا ضحكا عالياً من هذا الحديث ثم أخذنا نتمتع باحتساء القهوة العربية واكل شرائح البطيخ . وكانت هذه القصة الطريفة بداءة السمر لأنهم استحضروا بعد ذلك حاكياً كان مخاً في إحدى الزوايا ، وشرعوا يضعون عليه أقراصاً بها

قصائد وأغاني تسودها مسحة من الحزن والكآبة . وارتفع صوت بعض الضيوف بأغان من نوع الرومبا ، وكان في ركن من أركان الثوى رجل يغنى بواسطة عود يحمله . وكان هذا الرجل قد تعلم هذا النوع من الضرب الموسيقي المصحوب بالغناء في فترة إقامته بالديار المصرية ولما رآني مهتماً بالأغاني التي يذيعها اقترب مني وطلب إلى بالحاح أن أندمج معهم في هذا اللهو البريء ، فلبيت الطلب وتناولت العود فضعته إلى صدري ، كما تضم المرضعة فطيمها ، وسرعان ما تحركت أصابعي فوق الأوتار وانبعثت من حلقى أنشودة بحرية ، من نوع تلك الأغاني التي تعلتها في البراري فسر المدعوون من تلك النغمت التي لم تألفها آذانهم وأقبلوا يصالحونني بحرارة . وهنا دخلت الجوارى حاملات في أيديهن الصواني الطاخة بأنواع شتى من المرطبات ، ثم تقدمت إحداهن فتصدرت الثوى وبدأت تطربنا بصوت عربي جميل يسيل رقة وليونة على حين كنا نلذذ بالشراب الثلج سكارى من رائحة التبغ ومسرات الغناء .

والواقع أن هذه الأغاني الشعرية الرائعة هي إحدى عوائد العرب القديمة التي ما برحت نافذة إلى عصرنا الحاضر دون تغيير ولا تبديل . فالعرب عن بكرة أبيهم ميالون بفطرتهم إلى الشعر ، ففيه الحكمة التي تأخذ بمجامع اللب ، وله تأثير خاص على الحواس والمشاعر . مع أنهم في أحاديثهم الخاصة يلجأون إلى استعمال اللغة الدارجة ، وهي لهجة معقدة ليس في وسع كل إنسان أن يفهمها بمجرد سماعها . وقد يتعذر على كثير من الناس أن يتذوقوا طلاوتها لأول وهلة ، رغم أنها حافلة بالالفاظ العذبة والنكات السمحة . أما الشعر العربي فيدور كله حول الغزل ، ويرجع الفضل في ازدهار حركة الشعر الغزلي إلى عمر بن أبي ربيعة الملقب بـ « بدون جوان جزيرة العرب » .

وكانت الفتاة قد انتهت من غنائها فنهضت وغادرت الثوى ثم تقدمت أخرى وأشدت قصيدة غرامية تفيض بالعواطف الذاتية ، وبعد ذلك خيم الصمت والسكون ، ولم يعد يسمع غير أصوات تقلب المياه في جوف النارجيلة ، وأصوات

وحينذاك أخذ ضوء المصاييح ينخفت فدخلت إحدى الجوارى الحسان إلى البهو تحمل مصاييح أخرى جديدة بعد أن سحبت المصاييح المستعملة من داخل الفوانيس .

وكان من حظي أن اقتربت الجارية من ناحيتي ولاحظت أن وسادتي سقطت على الأرض فالتفتها من مكانها بمهارة وقدمتها إلى . هناك وقع نظري عليها وطلعت وجهها في ضوء المصباح الالامع ، وراقى منها شعرها الأسود المتموج كخيوط الليل ، وأسنانها اللؤلؤية وقامت الهيفاء ، كما أعجبت بحركاتها الرشيقية ، فأدمنت النظر إليها وصرت أتبعها بخاطري وهي تتحرك كالطائر من غصن إلى غصن ، ولاحظت مضيئ اهتمامي بهذه الجارية فاقتربت مني وقال :

— هل أزيجتك عائشة ؟

فأجبت على الفور :

— انها فتاة بدیعة حقاً

ثم حاولت أن أغیر مجرى الحديث ، ولكنه أدرك حيلتي فقلت له : ماذا دهاك يا أخى ؟ هل كنت سبياً في إيلامك ؟ فأجاب : كلا لا شيء مطلقاً ، لقد اغتبطت حين سمعتك تطنب في جمال عائشة ، لآتى شخصياً مفتون بها موله في حبها . فقلت مبتسماً :

— ولكن مادام الله قد من عليك بها فانك في نظري رجل سعيد .

فتبرم وقال في ضجر : أنا سعيد ؟ ومن أين لي هذه السعادة ؟ فقلت له : أليست عائشة ملك يمينك ؟

فقال : أجل إنها لي ، ولكنها جارية ، أتبعها بعشرين ديناراً من سوق الرقيق ، كانت إذ ذاك في العاشرة من عمرها وهي الآن في السادسة عشرة .

فظرت اليه في دهشة ، يد أنه أخى رأسه ثم صرح لي أنه يحبها من أعماق قلبه ، فسألته للمرة الثانية : وما يمنعك عنها وهي جاريتك وملك يمينك ؟

فأجاب : هذا صحيح ، ولكن دون ذلك خرط الفتاد ، فالإنسان في هذا الوجود قد يبلغ قمة المجد وقد يصل إلى الشهرة وإلى المال ولكن هذه أمور ثانوية وليست لها أدنى قيمة إذا

التهدات والزفرات وهي تخرج قوة حارة من صدور الرجال وراعنى هذا الصمت العميق الشامل ، وأحسست أنى تحت تأثير قوة مغناطيسية لا قوة لى على دفعها أو ردها ، وراعنى أيضاً أنها كانت حالة جميع الضيوف تقريباً ، فلقد رأيت أنهم يتوجعون ويتأوهون ، ولاحظت أن البعض منهم ين من لوعة الفراق ، ويتذكرون خليلاتهم ، فاقتربت من أحدهم ويدعى الكتبي وسألته على الفور :

هل أنت مغرم يا صاحبي إلى هذا الحد ؟ فأخنى رأسه ولم يحرج جواباً لأول وهلة ، ولاحظت أن وجهه احتقن بالدم ثم سمعته بعد لحظة يقول :

ولكن ليس في وسعى أن أملكها ، فانا كما ترى رجل فقير . وهي من عائلة مثربة . ما حيلتي وقد وقعت في شرك غرامها وأصبحت أسير هراها ؟ لقد أصبحت أسير امرأة ...

وكف عن الحديث فجأة ، فطبت خاطره وقلت له :

— ولكن المرأة التي تشير إليها ليست كسائر النساء فقال الرجل :

— انك تقول الحق وتنطق بالصواب ولكن انظر إلى فقد أصبحت في حالة يرئى لها ، بعد أن وقعت في غرامها . ما حيلتي وقد رزقها الله قدراً نحيلاً وقامة هيفاء ، وعينين نجلاوين كعيني الغزال ؟ انى أتيتل إلى الله ليل نهار أن يجعلها من نسائي ويرزقني منها الذرية الصالحة

وتأثرت تأثراً شديداً من حالة هذا العاشق المذنب وأردت أن أنتقل إلى صاحب آخر ، وكان الليل قد انسلخ منه نحو ثلثه ، فألفيت الضيوف يسبحون في عالم الخيال وعالم الحب ، وكلهم يشكون تباريح الهوى ولوعة الهجر ، ولاحظت أن البعض منهم يبكون نساءهم ويندبون حظوظهم ، وهكذا كانت ترتعد فرائصى من هول الموقف وأنا أفر من صاحب إلى صاحب

والخلاصة التي أستطيع أن أقررها أن هذه العواطف النبيلة التي اكتسبها البدو إن هي إلا أثر من آثار الصحراء التي يرجع الفضل إليها في تهذيب نفوسهم ، وفي تلقينهم أصول هذا الغزل اللذي قلنا نجده في سواهم من الشباب